تمثلات [الذات] و[تغايرات] الآخر في الخطاب: بناء تركيا في سياق الاتحاد الأوروبي

برغم العنوان المبهم والغير واضح إلى نوعا ما، يركز هذا الكتاب حصريا على تركيا في دوائر النقاش الفرنسية، بشأن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي. الجزء الأول من الكتاب يركز على البعد التاريخي وسياق النقاش الفرنسي. أما الجزء الثاني فيطبق الخطاب النقدي التحليلي لهذه المناقشة. الخطاب النقدي التحليلي متعلق «بعلاقة اللغة بالعناصر الأخرى من العمليات الاجتماعية والسلطة» (ص15)، ويعتمد على محتويات الخطب، والمناظرات، وتقارير وسائل الإعلام، وما شابه ذلك. هذا الكتاب يثري الأدب حول دور الهوية في السياسة؛ ونجد بشكل خاص أنه يستكشف العلاقة بين الذات والآخر في الخطاب السياسي الفرنسي تجاه تركيا.

وبحسب تكين، يحمل النقاش الفرنسي أهمية كبرى، سواء بسبب مركزية فرنسا في الاتحاد الأوروبي أو لأنه أيضا يرتبط بقوة بمعارضة فرنسا لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي. مناقشة تكين للأحداث وسياق المواقف الفرنسية ذات الصلة على وجه الخصوص، مثيرة للإعجاب إلى حد ما. فهي تشير إلى الميل الفرنسي في الخلط بين فكرة «فرنسا» و«أوروبا» التي تم تقويضها بسبب التغييرات التي شهدتها أوروبا وشهدتها فرنسا نفسها-لا سيما الهجرة الجماعية، وخاصة هجرة المسلمين، والتحديات التي تواجها، و«التجزئة» والقيم الجمهورية، مثل العلمانية والإخاء. علاوة على ذلك، كان التصور الفرنسي لأوروبا عرضة لأن يكون متوازيا أو متماهيا في «المسيحية» والقيم الثقافية والفلسفية المرتبطة بفرنسا خاصة، مثل مشروع التنوير.

يمكن لفرنسا أن تتعامل مع فكرة قبول تركيا عضوا في الاتحاد الأوروبي؛ لكن، عندما بدأ الاتحاد الأوروبي اللعب بالفيدرالية وبأفكار حضارية متعلقة بأوروبا، بدأت فرنسا تشكك في رغبة تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وعندما اقترب احتمال انضمام تركيا، احتدم النقاش حول تركيا في الدوائر الفرنسية. هذا النقاش لديه اشياء كثيرة وغنية، مركبة ومتناقضة، من التصورات التاريخية والمعاصرة. فالنقاش يتضمن الحروب الصليبية، والفتح العثماني للقسطنطينية، والعدو العثماني المسلم القوي الذي يقرع أبواب الغرب، دبلوماسية

فرنسا في القرن السادس عشر، الترحيب باللاجئين اليهود المطرودين من أيبيريا، والتسامح العثماني مع التنوع الديني والعرقي في الإمبراطورية، تراجع رجل أوروبا المريض، فرنسا هي مصدر إلهام الجمهورية العلمانية، الفظائع الأرمنية، قمع الأكراد، شريك الحرب الباردة، نظام الحكم الأكثر ديمقراطية وتقدمية للعالم الاسلامي. من الممكن تصوير الأتراك على انهم مختلفين وشرقيين واشداء ومقاتلين ومتسامحين، ورجعيين، وشباب، بالنسبة للفرنسيين (وغيرهم من الأوروبيين) وعلى وجه الخصوص، الديمقراطيين المسيحيين، الملتزمين بفكرة أوروبا المسيحية، والشعور بالحصار بسبب هجرة المسلمين والتوترات الاجتماعية والعرقية المترتبة على ذلك، يمكن أيضا النظر إلى تركيا على أنها زحف عشوائي لأسلمة أوروبا.

يعد كتاب تكين الرائع المبحوث بعمق، بمثابة مستودع لا يقدر بثمن لتصور فرنسا عن تركيا والأتراك والطريقة التي يعملون بها، وهذا هو الذي يجعل من مثل هذه القراءة ذات فائدة. ويوضح بطريقة رائعة كيفة الاستخدام الانتقائي للتاريخ وطريقة تفعليه لضمان دعم معارضة انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، أو تكاملها معه. هناك تصورات سلبية أخرى موجودة عن تركيا تصل إلى وصف الذات بالإيجابية، والآخر بالسلبية، تتراوح بين تعريف ما هو غير أوروبي من جهة، وجعل تركيا جزءا لا يتجزأ من فكرة أوروبا من الجهة الأخرى.

حتى مع فرنسا، فان معارضتها انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بعيدة عن العالمية. كذلك، تغيرت صور تركيا مع مرور الوقت، وسوف تستمر في التغير. كما تشير تكين، فـ«إن عملية انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، والنظر إلى الآخر التركي كتهديد يقوض عملية التغيير». (ص215–216)

كذلك، يختلف الخطاب حول تركيا من بلد إلى آخر في الاتحاد الأوروبي. في المملكة المتحدة – مثلا– هناك اختلاف بشأن عضوية تركيا، فوجهة النظر البريطانية مختلفة عن نظيرتها الفرنسية التي ترى أن تركيا حصان طروادة للولايات المتحدة، وتراها من المنظور البحري والعالمي بدلا من القاري والأوروبي، وأكثر ميلا نحو التعددية الثقافية. برغم ذلك، فالخطاب السلبي موجود أيضا. مع ذلك، فإن اللهجة أكثر إيجابية، ودعم انضمام تركيا أكثر ظهورا. هذا يقودنا إلى سؤالين حول هذا الكتاب. السؤال الأول، ما الذي يؤدي إلى الجلوس حول طاولة المفاوضات؟ ألا يخبرنا السجل التاريخي بمزيج غني من التداخل، والتنافس، والروايات والصور المتناقضة؟ ألا يمضي دون أن يقول أيضا أننا «ننشئ» «حقائقنا» وخطاباتنا بالطريقة التي نفسر ونحدد بها هذا السجل؟

ثانيا، كما تؤكد تكين «هناك دائما إمكانية للتغيير»(ص215) في طريقة تقديم تركيا، ما الذي يحفز مثل هذا التغيير؟ الأتراك يمتلكون أيضا الخطاب الذي أحيانا ينشئ الأوروبي الاخر، «النادي المسيحي»، الذي يرفض

انضمام بلادهم إلى الاتحاد الأوروبي لسبب جوهري؛ وهو أن تركيا دولة مسلمة. والحقيقة أن هذا الكتاب يعزز ذلك الخطاب، بقصد أو بغير قصد. لكن، ماذا لو أصبحت الديمقراطية التركية أو السلطة القضائية مستقلة ومحايدة؟ ماذا لو لم تزج تركيا بالصحفيين في السجون أو تحظر الأحزاب السياسية؟ ماذا لو أصبح الجو السياسي والاجتماعي أكثر تسامحا وأقل استقطابا، ووضعت حماية أفضل لحقوق الأقليات؟ ماذا لو كانت تركيا مثل فرنسا أو المملكة المتحدة؟ بعبارة أخرى، ماذا لو أصبحت مثل أوروبا وليس نقيضها؟ وبرغم أن صور المساجد وغطاء الرأس للنساء تمثل وجه تركيا، ولا يمثلون نفس الشئ لأوروبا، بما في ذلك فرنسا، إلا أن تلك الصور تعطي تقييما إيجابيا بخصوص التحاق تركيا بالاتحاد الأوروبي؟

هناك حقائق يتطرق اليها الكتاب.

عرض: بيل بارك